

## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

لأستاذ المساعد الدكتور صلاح كاظم جابر (\*)

يشغلُ البحثُ عنايةً بمعالم التغيير الاجتماعي الذي يتبناه القرآن الكريم، مؤكداً أنَّ الهوية الإسلامية للمجتمعات العربية والإسلامية الشرقية بشكلٍ عامٍّ ومنها مجتمعنا العراقي بشكلٍ خاصٍّ، بحاجة ماسّة إلى النظر في الأسس التي تقوم عليه هذه الهوية، وللبحث أهداف منها:

١. بيان الأسس التي تقوم عليها الطريقة القرآنية في التغيير الاجتماعي من خلال الفلسفة الاجتماعية التي رسمها القرآن للمجتمع المسلم.
٢. بيان أنَّ الدين يُشكّل العمود الفقري للهوية الثقافية والاجتماعية في المجتمعات بما هو مؤسس لمنظومة قيمية فضلاً عن أنَّه ممارسة اجتماعية.
٣. بيان أهمية اعتماد التغيير الاجتماعي على أسسٍ منطقية تتلاءم مع المنظومة القيمية للحياة الاجتماعية.

وما يريده البحث من المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي: هي الطرائق والوسائل التي استعملها القرآن الكريم لتغيير المجتمع الجاهلي في مكة والمدينة المنورة، والتي يمكن أن تتطور ذاتها إذا ما استلهمنا الأسس التي يقوم عليها التدريب القرآني في تغيير السلوك الاجتماعي.

(\*) تدريسي في قسم علم الاجتماع في كلية الآداب جامعة القادسية.

وبعد ذلك: تخطى القرآن الكريم عقبة التغيير الاجتماعي والثقافي إبان الحضارة العربيّة الإسلاميّة... ويتوج حضارة ليس لها مثيل في التاريخ الإنساني من معاصراتها من الحضارات الإنسانيّة آنذاك، فيكون بذلك قد وضع مخطّطاً تربويّاً وعلميّاً تثقيفيّاً دقيقاً لإعادة بناء عمليات التنشئة الاجتماعيّة التي تأخذ على عاتقها بناء الإنسان من خلال نقل الموروث الثقافي في المجتمع بين الأجيال من سابقٍ إلى لاحق؛ إذ تقوم بهذه العمليّة مختلف المؤسسات الاجتماعيّة في المجتمع الإسلامي.

## مدخل

تحتاج الهوية الإسلامية للمجتمعات العربية والإسلامية الشرقية بشكل عام، ومنها مجتمعنا العراقي بشكل خاص، إلى النظر في الأسس الذي تقوم عليه هذه الهوية؛ لأنها مجتمعات أثبتت العلوم الإنسانية المعاصرة بأنها (متديّنة)، بهدف تمكين هذا الأسس من الحفاظ على خصوصية المجتمع وتجنبيه الحرمان من العناصر الثقافية التي يمكن أن تنتجها غيره من المجتمعات، سواء كانت على شكل مخترعات مادية أم معنوية، كما هو الحال مع نتائج العلوم الإنسانية، فضلاً عن مواجهة عمليات التدجين التي تقوم بها عمليات الاختراق الثقافي الممنهج للثقافات الإنسانية، سعياً إلى إلغاء خصوصيتها ودمجها في ثقافة سلعية، تقتل روح الإنسان وتهبط به إلى الدرك الأسفل عندما تُحوّله من أكرم مخلوقات الباري (عز وجل) إلى سلعة تثير أصحاب الأموال وتفجر فيهم حبّ الشراء.

وما يقصده البحث من العناصر الثقافية المادية هي العناصر التي تمثل مجموعة المخترعات، ويجب أن نتبه إلى أن العلوم الاجتماعية التي اهتمت بالسلوكيات الإنسانية داخل الجماعات والمجتمعات ترى أن لكل مخترع قيمة أو منظومة قيمية، واقتناؤه يعني إدخال هذه القيمة أو المنظومة القيمية الثقافية بمعناها الأنثروبولوجي، فإنّها تعمل على تغيير المنظومة القيمية السائدة في هذا المجتمع أو ذلك، باتجاه ما وضعت له من قيم قد تتطابق أو تتعارض مع القيم الإسلامية التي ندين بها، الأمر الذي يحتم أن نوائم هذه القيم (بالاستخدام

الإيجابي الأمثل) مع منظومتنا الإسلامية التي بناها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة آل البيت الأطهار عليهم السلام ممن سعوا إلى أن يبقى الإسلام كما هو من أول الزمان إلى آخره.

فالنظر العقلاني الواعي في غايات العلاقة التي تنشأ بين القيم الوافدة والقيم السائدة، هو الذي يحبط الأهداف التي ترمي إلى إذابة الهوية الدينية والتي تسبغ الهوية الثقافية للمجتمعات الإسلامية والعربية، ومنها المجتمع العراقي بشكل خاص، إن استيعاب هذه القيم إسلامياً يفترض أن يقوم على المنهج القرآني الذي استوعب القيم السابقة والمعاصرة لظهوره في الجزيرة العربية التي يتهمنا المستشرقون اليوم باقتباسها ممن سبقونا، بل يأخذونها الذريعة للتشكيك بإلهية الدين الإسلامي مستندين إلى تجاهل النظرية القرآنية في منهجية التغيير الاجتماعي المخططة إلهياً والمنفذة نبوياً.

### المحور الأول

مشكلة البحث تقوم على مجموعة التساؤلات التي شكّلت موضوع البحث وأعطته سمته المنطقية والعقلانية، ويمكن إيجاز مشكلة البحث في التساؤلات الآتية:

١. ما عمق وأصالة التغيير الاجتماعي الذي جاء به الإسلام الذي بنى مجتمعاً مثالياً (مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول) رغم كل المعوقات (المنافقون واليهود والحروب)؟
٢. هل استند القرآن الكريم إلى منهج محدد يمكن استقراؤه عبر إعادة قراءة النص التأسيسي (دستور الإسلام "القرآن الكريم")؟
٣. ما حظ هذه النصوص من التطبيق في ظل الدولة الحديثة دولة

## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

القانون والمؤسسات؟

٤. هل يمكن أن نعمل على تفعيل هذه المنهجية في سلوكيات الأفراد (مع القوينة أو بدونها عن طريق التوجيه والإرشاد كما فعل صاحب حسينية الإرشاد الذي وضع الحجر الأساس لثورة اجتماعية)؟

### أهمية البحث

تتركز أهمية البحث في النقاط الآتية:

١. التعرف على إمكانية بناء نظرية إسلامية في تحديد سرعة التغيير الاجتماعي واتجاهه على أساس الفلسفة الدينية في الحياة الاجتماعية للمتدينين في المجتمع الإسلامي العربي العراقي.

٢. الرغبة التي اعترت كل علماء الاجتماع الديني في استثمار قوة الدين بوصفه أقوى الفواعل الاجتماعية في حياة المجتمعات الإنسانية بعد أن توصلوا إلى بديهية عدم زوال الدين من حياة الفرد والمجتمع مهما كانت الظروف.

٣. التعرف على الأسس التي تقوم عليها المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي.

### أهداف البحث

١. بيان الأسس التي تقوم عليها الطريقة القرآنية في التغيير الاجتماعي من خلال الفلسفة الاجتماعية التي رسمها القرآن الكريم للمجتمع المسلم.

٢. بيان ما يُوصف به الدين بأنه العمود الفقري للهوية الثقافية والاجتماعية في المجتمعات فهو مؤسس لمنظومة قيمية فضلاً عن أنه ممارسة اجتماعية (تدين).

٣. بيان أهمية اعتماد التغيير الاجتماعي على أسسٍ منطقيّة تتلاءم مع المنظومة القيمية للحياة الاجتماعية.

### مفاهيم البحث

#### المنهجية (Methodology)

المنهج هو الطريق أو السبيل أو الوسيلة التي يتمّ بواسطتها بلوغ الأهداف العمليّة، والمعرفيّة، أو حتّى الأهداف الاجتماعيّة، وكذا فهي الدراسة المنطقيّة المنظمة للمبادئ العامّة التي توجه الاستقصاء المنطقي<sup>(١)</sup>، المنهجية أيضاً مجموعة الأدوات والإجراءات المستخدمة في إمدادنا بالمعرفة العلميّة تؤلّف نظاماً معيارياً وتمثل الاتجاه العقلي<sup>(٢)</sup>.

إنّ تنوع ميادين علم الاجتماع - كما يرى ريمون بودون - هو الذي يدفعنا إلى التعدّد في المناهج المستعملة والتي يقسمها على مجموعة من الأنواع التي تشمل الدراسات الشاملة ومنها دراسات التغيير الاجتماعي والدراسات التي تعمل على تحليل التوجهات أو المذاهب الاجتماعيّة التي تتمثّل بالسمة الاجتماعيّة الغالبة على مجتمع ما<sup>(٣)</sup>.

#### التغيير الاجتماعي (Social Change)

يمثل التغيير الاجتماعي الحركة التلقائية التاريخيّة في الحياة الاجتماعيّة للمجتمعات الإنسانيّة، وهو سُنّة من سنن الكون يكتسب السمة الحتميّة في علم الاجتماع الأمر الذي دفع بالفلاسفة والمصلحين للتوصل إلى أنجع الطرائق التي يمكن بواسطتها توجيه التغيير الاجتماعي في حياة المجتمعات الإنسانيّة، وفي حياة الفرد أيضاً على حدّ سواء عن طريق عملية التخطيط

## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

للسيطرة على اتجاه وسرعة التغيير الاجتماعي سلبياً كان أم إيجابياً وسريعاً كان أم بطيئاً<sup>(٤)</sup>.

### المنهجية القرآنية

يقصد الباحث بالمنهجية القرآنية: هي الطرائق والوسائل التي استعملها القرآن الكريم لتغيير المجتمع الجاهلي في مكة والمدينة المنورة، والتي يمكن أن تتطور ذاتها إذا ما استلهمنا الأسس التي يقوم عليها التدريب القرآني في تغيير السلوك الاجتماعي.

### المحور الثاني: (التغيير الثوري)

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾<sup>(٥)</sup>.

إذ تسود في حياتنا الاجتماعية كثير من القيم والعادات والتقاليد الاجتماعية الدخيلة التي نعاني من وطأتها في تحديد طبيعة الاستجابات السلوكية للأفراد في المجتمع العراقي، فضلاً عن سيادة نوع من التخبط الاجتماعي عند الشباب بشكل خاص، في اتجاهاتهم نحو تقليد كثير من السلوكيات الاجتماعية السلبية التي يعدونها من التطور؛ لأنهم اقتبسوها من مجتمعات متطورة كالمجتمعات الغربية.

الأدهى من ذلك إن مثل هذه السلوكيات لم تعد مقتصرة على مرحلة عمرية، بل تبلورت إلى حد أصبحت جزءاً من القيم الاجتماعية العامة لاسيما القيم الأسرية في التعامل؛ فقد فهموا الفردية على أنها قطع صلة الرحم، وفهموا الإستخدام العشوائي السلبي لعناصر الحضارة المادية على أنه التقدم، فتبلورت قيم اجتماعية على درجة كبيرة جداً من الأهمية تحط من قدر العلم

والتعليم، وترتكز على التعليم الآلي الميكانيكي القائم على التجربة والخطأ؛ فضع من حياتنا الاختراع وأهميته، وصرنا لا نُعَمِّر الأرض، بل نشترى الإعمار؛ لأنهم لم يتركوا لنا مجالاً للاختراع فكلّ شيء موجود في الأسواق وقت ما تشاء وبأية كيفية<sup>(٦)</sup>.

صارت حياتنا عبارة عن مرحلة زمنية نجمع بها ما استطعنا من أموالٍ للحصول على ما استطاعوا صناعته من مخترعاتٍ لم نعد أسس هويتنا ولا أهمية خصوصيتها؛ لأنّ الثقافة والتثقيف صار مضيعة للوقت ليس إلّا، صارت بلادنا تغطّ في تحلّف وتبعيّة ونحن لا نأبه إلّا بما يمكن أن نحصل عليه بما يسمونه سعادة الاستهلاك، في كلّ شيءٍ حتى العلم بوصفه أحد الفرائض، وقد شمل ذلك العلم في الدين؛ فصرنا نعتمد ما يأتينا عبر وسائل الاتصال الحديثة جاهزاً دون أن نُكَلِّف أنفسنا النظر في أهدافٍ وغاياتٍ من يُكَلِّفون أنفسهم؛ ليقدموا لنا مجاناً علماً لا تؤمن عواقبه من تطرّف وإرهابٍ يعصف بالبنى الاجتماعية<sup>(٧)</sup>.

فنسينا بما نسميها حضارة ما ورد في القرآن الكريم من أهمية التفكّر والتعقّل والنظر والحكمة، ومكانة أولي الألباب عند ربهم حتّى في مناقشة النصوص الإلهية التي لا يستحي الباري فيها أن يناقش تكوين بعوضة أو حياتها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾<sup>(٨)</sup> ليعقلن الإنسان في عبادته أولاً، وحياته ثانياً، وسعيه وإعمار له للأرض ثالثاً، التي جعل فيها خليفة، وفضّل بذلك على كثيرٍ ممّن خلق سبحانه وتعالى.

فهل من سبيلٍ إلى ثورة وتغييرٍ سريعٍ جذري شامل في البناء الفكري والسلوكي للفرد والجماعة الاجتماعية والمجتمع؛ لأنّ الثورة في أكثر معانيها



## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

عموميّة هي عمليّة التغيير الثوري السريع والجذري الشامل الذي يمكن أن يطرأ على الحياة الاجتماعيّة للأفراد والمجتمعات مهما اختلفت الطريقة التي تتمّ بها هذه الثورة؛ فالثورة الإسلاميّة في جمهورية إيران قامت بالحشد الاجتماعي ضدّ قوى البغي والظلم والتجهيل قبل أن تقوم بقوة السلاح والدم (بنيتُ العقول لتكون القاعدة)؛ ثمّ شرعوا، فرفعوا البناء باعتماد كلّ ما متاح من الوسائل الاجتماعيّة<sup>(٩)</sup>.

ليست الثورة أن يتصدّى أحدهم بما يمتلكه من صورة كارزمية وحسب، بل إنّ الكلّ مكلفون بها من خلال إعادة بناء الأسس التي تقوم عليها عملية التنشئة الاجتماعيّة؛ فالقرآن أوحى للنبيّ وحسب، وكانت بداياته عمليّة إعادة تنشئة وبثّ قيم اجتماعية في حياته الفردية، إلّا أنّنا لا يمكن أن نتغاضى عن أنّ القرآن مارس هذه العمليّة في مدّة الدعوة السريّة مع الصحابة الأوائل الذين كرمهم القرآن الكريم بالتوكيد أكثر من مرّة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> فعمل النصّ القرآني على إعادة بناء ثقافة اجتماعيّة لجماعة اجتماعيّة ولم يكن النبيّ مكلفاً منفرداً؛ لأنّ قوى الفرد الواحد تعجز عن أن تُحدث التغيير إذا لم تلاق قبولاً اجتماعياً يخلق ثقافة معارضة سلميّة للأوضاع الاجتماعيّة؛ ليضع حجر الأساس لثقافة اجتماعيّة عامّة تبلورت في مجتمع المدينة المنورة<sup>(١١)</sup>.

بنى القرآن الكريم بثورته مجتمع المدينة المنورة في مدّة قياسية لم تتجاوز نصف عمر جيل واحد، فكان لها دستور يلزم القريب والغريب بأسسه الإسلاميّة القرآنيّة؛ ثمّ توسّع ليشمل الجزيرة العربيّة بأغلبها في مدّة لم تتجاوز ٢٣ عاماً من حياة الرسول الكريم ﷺ؛ فما أوجنا إلى النظريّة القرآنيّة، في القرآن الكريم؛ لتوجيه وتحديد سرعة التغيير الاجتماعي في مجتمعنا العراقي

الذي ينهي عامه العاشر من سقوط الديكتاتورية، ويزيد على التغيير الذي لم يثمر إلا الخوف والبطالة وسوء الخدمات الاجتماعية، وكثيراً من جوانب الحياة الاجتماعية السلبية؛ لأنَّ التغيير جاء بقوة سلاح لا يعي من أسس هويّة المجتمع العراقي وثقافته ما يعيه العراقيون أنفسهم، لو أنّهم قاموا بمثل هذا التغيير معتمدين النظرية القرآنية في التغيير الاجتماعي المخطط<sup>(١٢)</sup>؛ هنا يكون للوعي بأهميّة التغيير الاجتماعي في حياة المجتمعات الإسلامية، ومنها المجتمعات العربيّة ومجتمعنا العراقي على وجه التحديد أهميته القصوى والضرورة الملحة عندها يبلغ البنيان تمامه يحدث المأمول في حياة الفرد والمجتمع.

إنّ ما يلزم الثورة على أن تكون دموية قاهرة جبارة لفئة على حساب بقيّة فئات المجتمع الذي نعيش فيه اليوم الذي يتميز بالتعددية الدينيّة والطائفيّة والمذهبيّة والاثنية والقوميّة، وغيرها من التعدديات التي تأخذ سماتها الانثروبولوجية، هو تبني الدعوة القرآنية على التسامح والتعايش مع الآخر مهما كانت سمته والدعوة إلى الدين بالحسنى والمجادلة والحكمة والموعظة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾<sup>(١٣)(١٤)</sup>.

إنّ الفوضى الاجتماعية التي نعيشها اليوم جراء الاستعباد، والاستبعاد الاجتماعي لبعض الفئات على حساب الأخرى وسعي بعضٍ آخر إلى فرض المصالح على حساب الحياة الاجتماعية للأغلبية ومصالحهم وعدم تقبل نتائج التغيير الاجتماعي هي التي كانت العامل الأساس الذي جعل التغيير الاجتماعي الذي خلصنا من ظلم الطواغيت واستغلالهم ومقابرهم الجماعيّة للأصوات الحرّة، جعل من هذا التغيير نقمة يندم كثيرٌ على حصولها ولم يروا لضيق الأفق



## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

وقلة الاطلاع والحيلة إلى فقدان المنهج القرآني في ثورة اجتماعية على أوضاع فاسدة امتهنت كرامة الإنسان ونزلت به إلى الدرك الأسفل من جحيم الحياة الأرضية فصار عبداً للحكام والظلام والطواغيت حتى قالوا فيه (الناس على دين ملوكهم)؛ لأنهم لم يكونوا يملكون دينهم في ما كانوا ينظرون فيه ما ينفعهم وما يضرهم فكانت حياتهم ضرراً من دون نفع، وبلاءً من دون دفع.

### المحور الثالث: (التغيير الشامل)

قال تعالى ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾<sup>(١٥)</sup>.

رغم أن النصوص القرآنية عاجلت جميع مفاصل الحياة الاجتماعية في المجتمع المكّي والمدني وركزت على القيم الاجتماعية ذات المردودات السلوكية السلبية في الحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات الاجتماعية وعملت على إبقاء القيم الاجتماعية الإيجابية، إلا أن ذلك يقودنا إلى التفكير في هذه النصوص وإعادة قراءتها من جانبين أساسيين من وجهة نظر الباحث، الأول منها هو:

إن شمولية المنهج القرآني في التغيير الاجتماعي تأتي من تكاملية القرآن وعمومية النص القرآني وتاريخيته ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾<sup>(١٦)</sup> لا تلغي فاعليته في حياتنا الاجتماعية المعاصرة في الألفية الثالثة بعد مرور ما يزيد على ١٤٠٠ سنة من التغيير الاجتماعي المتراكم العشوائي منه والمخطّط لصالح غيرنا في كثير من الأحيان، كأن يكون هذا المختلف مستعمراً أو حاكماً مستبداً لا يرى إلا بقاءه على سدة الحكم لأطول مدة ممكنة، أو توريث هذا الحكم دون وجه حقّ أو استناد إلى شرع أو قانون؛ فكمال الدين لا يعني أن الباري (جلّ وعلا) يقطع بعدم حصول تغيرات اجتماعية بعد حياة الرسول الكريم؛ فقد ناقش الردة التي حدثت بعد الرسول في

حياته ﷺ ولم يأبه النصّ بمن يضل بسببها، إن التكامل هنا هو بناء الإنسان القادر على فهم التعاليم الإسلامية واستيعابها في كل عصرٍ وزمان ومواءمتها مع متطلبات ذلك العصر؛ فقول الرسول الكريم ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين»<sup>(١٧)</sup> أوضح إشارة على ضرورة استلهاهم ما فيهما من مضامين اجتماعية ودينية<sup>(١٨)</sup> في جوانب حياتنا الاجتماعية، وهناك الكثير من المواقف والمشكلات الاجتماعية التي يحتاج فيها إلى قوة القرآن الكريم وفاعليته بوصفه ديناً بالدرجة الأساس إلى التأثير في سلوكيات الأفراد والجماعات والمجتمعات بشكل عام<sup>(١٩)</sup>.

هذه واحدة من البديهيّات التي خلّص إليها علماء الاجتماع الغربيون الذين اكتشفوا العلوم الإنسانية ووضعوا السعادة الإنسانية غاية لها، تلك السعادة التي لا تتحقّق إلا مع تحقيق إنسانية الإنسان وتخليصه من كلّ المشكلات الاجتماعية والفردية التي تُنغص عليه حياته وتعيق عملية التفاعل الاجتماعي الايجابي التي يخوضها في حياته الاجتماعية؛ فقد قرّروا أنّ الدين هو أقوى العوامل الاجتماعية وأكثرها فاعلية في التأثير على السلوك الفردي والجماعي، ويمتلك الإمكانية الأوسع في مناقشة جوانب الحياة الاجتماعية على الصعد والمستويات كافة<sup>(٢٠)</sup>.

وإنّ ما يحدث من عمليات التحول نحو أنواع التفكير الأخرى من الإلحاد والمادية والعقلانية العلمية ليس إلا عملية استبدال نسق قيمي بدل النسق القيمي الذي يُشكّله الدين إذ أنّ الدين هو نسق من الأفكار والمعتقدات التي تُنظّم حياة بني الإنسان بعضهم مع البعض الآخر ومع ما وراء الطبيعة التي تضي عليه طابع القدسيّة الذي يجعل من التعاليم الدينية ملزمة في السلوك الفردي والجماعي والاجتماعي في حياة الأفراد والجماعات



## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

والمجتمعات الإنسانية<sup>(٢١)</sup>.

أمّا إذا سألنا علم الاجتماع الديني لماذا يلحد الأفراد أو يتحولون إلى نسق قيمي جديد بدلاً من النسق السماوي؟ فيجبنا: إنَّ كلَّ عمليات التحول القيمي التي ينطوي عليها التغيير الاجتماعي بما فيها التحول من دينٍ إلى آخر، أو إلى اللادين، كما هو الحال في الماديّة والإلحاديّة وغيرها من التوجهات القيميّة تقوم على عدم قدرة الدين أو النصّ التأسيسي في الدين أو حتّى صور التطبيقات الاجتماعية على إشباع الفضول والرغبة المعرفيّة للفرد لشمولية النصّ وتفسيره لجوانب الحياة الاجتماعية أو عدم قدرته على مواكبة التغيرات الاجتماعية التي تحدث في حياة الفرد والمجتمع أو تعارضه مع المكتشفات العلميّة<sup>(٢٢)</sup>.

هذه الحال لا يقتصر على الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الدين أو ذلك فقط بل يتعداها إلى نظرة الآخر إلى هذا الدين أو ذلك؛ فمراجعة بسيطة وسريعة لموقف المستشرقين من شخصية الرسول الكريم ﷺ توضح أنّهم لم يستطيعوا النيل من شخصية الرسول الكريم ﷺ، إلا بوصفه بالعبرية والتفرد عندما رفضوا، وعاندوا، وكابروا على عدم الاعتراف بالوهية الإسلام والمصدر الإلهي للقرآن الكريم، إلا أنّنا اليوم نجدهم ينالون من شخصيّة الرسول الكريم ﷺ؛ بكثير من التعبيرات الاجتماعية التي تسوّغها أفعال كثير ممّن يُحسبون على الإسلام الذي أصبح دين الإرهاب؛ بعدما كان دين التسامح الذي أصبح دين القتل والمخدرات على يد القاعدة؛ فكانت كلّ الصور البذيئة التي رُسِمَت في ذهنيّة الذي يجهل الإسلام، هي صورة لناس جعلوا من أنفسهم ممثّلين للإسلام والإسلام منهم براء<sup>(٢٣)</sup>.

فضلاً عن أنّ بقية المسلمين لم يستلهموا ما يقدّمه النصّ القرآني - ﴿وَلَا

تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٢٤﴾ - في التعامل مع مثل هكذا إساءة بل عملوا على تكريس هذه الصورة السلبية فمنحوهم العذر في المزيد وشككوا في كل من لا يمتلك من الثقافة الدينية ما يعينه على التمييز بين الإسلام بوصفه ديناً، وبين تصرفات الأفراد بوصفها طريقة للتدين<sup>(٢٥)</sup>.

أمّا الثاني فهو قابليّة النصّ القرآني على استيعاب القيم الاجتماعيّة المستحدثة أو القديمة في حياة الفرد والجماعة شريطة تحقّق المصلحة الاجتماعيّة منها المتمثّلة في الحفاظ على حياة الإنسان حرة كريمة، فالقرآن الكريم ليس جامداً بحث كلّ التفاصيل؛ إنّما ترك كثيراً من التفاصيل التي تهم الحياة الاجتماعيّة إلى المسكوت عنه الذي يمكن الاجتهاد فيه، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾<sup>(٢٦)</sup> وكذلك الأمر باتباع الرسول بوصفه قدوة وهذا الأهم، لكثير من الأسباب أهمّها: إنّهُ لا ينطق عن الهوى وهو على خُلُقٍ عظيم.

هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر فإنّ القرآن الكريم أمر الإنسان بابتداع جميع العلوم للوصول إلى حقيقة الإعجاز الإلهي في الخلق؛ لأنّ ما أوتينا من العلم إلا قليلاً ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾<sup>(٢٧)</sup>.

إنّ بحثنا هذا لا يحيط جوانب النظرية القرآنيّة جميعاً؛ نظراً لمحدوديّة إمكانيات كاتبه إلا أنّ العلوم التي تتناول الجوانب الاقتصاديّة في الإسلام كثيرة جداً، فهنالك الاقتصاد الإسلامي والسياسة الإسلاميّة والتربية الإسلاميّة والأسس الاجتماعيّة لبناء الأسرة الإسلاميّة في المجتمعات الإسلاميّة وغيرها من مجتمعات البشرية كلّها استلهمت النصّ القرآني ولم

## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

تمذهب وتطيف وتسخر لمصالح وأهواء الحكام؛ فشهد بموضوعيتها الأعداء قبل الأصدقاء ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٨)(٢٩).

ليست الدعوة أعلاه تنطوي على مضمون الدعوة إلى أسلمة العلوم؛ فقد لا تنطوي على عملية التقعيد الاجتماعي للعلوم الاجتماعية والإنسانية التي اهتمت بسلوكيات الإنسان على شكل قواعد ومعايير اجتماعية مُحدّد نمط الاستجابات السلوكية للأفراد إزاء كلّ الدوافع والخوافز والمثيرات في المواقف التفاعلية التي يمرّ بها الفرد المسلم المُتسلّح بالمعرفة القرآنية في حياته الاجتماعية داخل الجماعة أو المجتمع الكبير؛ هي دعوة لقراءة القرآن وإعادة قراءته هي دعوة لكلّ من يرغب أن يظهر هويته الإسلامية في كلّ أصقاع العالم من أجل أن يفتخر بإنسانيته التي نشأ عليها دينياً.

### المحور الرابع: (توجيه التغيير الاجتماعي)

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠).

يقصد الباحث بتوجيه التغيير الاجتماعي عملية التخطيط العقلاني للإمكانات البشرية والمادية، والمعنوية من القيم والعادات والتقاليد المسبقة للتغيير الاجتماعي، والذي يبتغي - بوصفه غاية قصوى - بناء رأس المال الاجتماعي، بناء الإنسان قبل بناء رأس المال الاقتصادي الثروات الطبيعية والصناعات أو غيرها من مصادر الثروة، بناء الإنسان قبل بناء الدولة بناء المواطن الملتزم قانونياً وأخلاقياً ودينياً؛ فالإنسان الذي بناه الإسلام هو الذي استطاع أن يبني دولة شملت ثلاثة أرباع العالم القديم في مدّة قياسية لم تتجاوز

المئة عام، وبنى فيها أعظم حضارة عرفها الإنسان كانت حلقة الوصل الذي أوصل الحضارة إلى ما هي عليه اليوم عند غيرنا<sup>(٣١)</sup>.

هنا يكون قول الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ خير مرشد ودليل في هذه العملية إذا ما تمّ فهمها بالطريقة القرآنية التي تحمل على النوايا الحسنة؛ فثيب عليها ولا تحمل على النوايا السيئة فلا تعاقب عليها؛ فيقول ﷺ: «يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها»<sup>(٣٢)</sup>.

والثابت إن الدين لكلّ العصور والأزمان لا يتقادم ولا يعتربه الصدأ والتآكل كما هو التغيير الاجتماعي الذي يشمل التغيير الثقافي في علم الاجتماع، وكلّ ما عداه نسبي قابل للزيادة أو النقصان على وفق الزمان والمكان، إلا أن التجديد يكون في الوسائل المجدية التي تحقق المصالح الاجتماعية العامة لا على حساب المصالح الفردية، بل تكون جماع هذه المصالح وتلاقحها وما أحوجنا إلى التجديد اليوم بعد بداية العقد الثاني من الألفية الثالثة؛ لتخلص ممّا نحن فيه من غلبة للآخر علينا في كلّ ميادين الحياة الاجتماعية التي لم نعد نملك منها إلاّ الادعاءات بأننا أمة وسط، وأننا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة بالبدائل الإنسانية التي تحافظ على قيمته الإلهية العليا<sup>(٣٣)</sup>.

فالتخلص من اقتصاديات الربا والرقّ التي امتهنت كرامة الإنسان وتحول الاقتصاد الإسلامي إلى الكفاف، ثمّ إلى اقتصاد ريعي تدريجيّاً، ثمّ اقتصاد عمل تطوّر إلى حدوده القصوى هو الذي جعل من الدولة الإسلامية المنافس الند لأعظم امبراطوريات العالم آنذاك؛ التي يمتدّ عمرها إلى مئات وآلاف السنين، واليوم استلهم النظرية القرآنية في التخلص من اقتصاديات



## المنهجية القرآنية في التغيير الاجتماعي

التخلف والتبعية والاستهلاك المظهري هو الذي سبب لنا دولة يعز بها الإسلام وأهله، لا يكون ذلك عن طريق ارتباط الثقافة القرآنية بالبناء الذاتي للإنسان الذي تركزت هويته العربية والإسلامية بحيث طغت على ما اقتبس من علوم الأولين وحكمتهم، وإنَّ حالة التوتر التي توفرها عمليات الاقتباس الثقافي والحضاري جعل منه المنهج القرآني الدافع الإيجابي إلى إعادة التوازن الديناميكي الاجتماعي للشخصية الإسلامية في المجتمع العربي المسلم<sup>(٣٤)</sup>.

فالإنسان فقط هو الذي استطاع تحرير اليابان - بعد أسوأ احتلال عرفته في تاريخها في ظل أسوأ ظروف إنسانية عاملها بها المحتل الذي فرض عليهم السخرة وغيرها - ودستور بنوا به أعظم اقتصاديات العالم اليوم؛ فالإنسان هو الذي يُسمى المعجزة اليابانية.

تخطى القرآن الكريم عقبة التغيير الاجتماعي والثقافي إبان الحضارة العربية الإسلامية التي بزغ نجمها على مراحل متعددة في مراحل نزوله؛ ليزداد سطوعاً ويتوج حضارة ليس لها مثيل في التاريخ الإنساني من معاصراتها من الحضارات الإنسانية آنذاك؛ فيكون بذلك قد وضع مخططاً تربوياً وعلمياً تثقيفياً دقيقاً لإعادة بناء عمليات التنشئة الاجتماعية التي تأخذ على عاتقها بناء الإنسان من خلال نقل الموروث الثقافي في المجتمع بين الأجيال من سابق إلى لاحق؛ إذ تقوم بهذه العملية مختلف المؤسسات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي؛ فكان الاعتراف بالغريزة في سلوك الإنسان هو الطريق إلى وعي الفرد أهمية تنظيمها تنظيمياً اجتماعياً قائماً على الأسس الدينية التي لا تسمح بإطلاق العنان لها.

## الاستنتاجات

- ينطوي النصّ القرآني على كثيرٍ من الحلول لعددٍ من مشكلاتنا الاجتماعية إذا ما أُعيدت قراءته بطريقةٍ عصرية.
- لا يتضمّن النصّ القرآنيّ بالضرورة التقاطعَ مع العلم والفلسفات الاجتماعية الأخرى والوضعية بالذات؛ لذا فيمكن أن تستخدم هذه الفلسفات في دراسة واستلهام النصّ القرآني.
- إنّ القرآن الكريم لا يقوم على نفي الآخر زمانياً أو مكانياً ممّن سبقه أو ممّن عاصره.
- يمكن أن يُجدّد لنا النصّ القرآنيّ طبيعة العلاقة بالآخر الديني بشكلٍ خاصّ ويجنبنا الآخر المذهبي والطائفي الذي يعدّ أكبر وأعقد مشكلات المجتمع العراقي اليوم.
- إنّ التفقّه والوعي بمضمونات النصّ القرآني يجب أن تكون فرضاً على كلّ مسلمٍ ومسلمة.



### المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
- جودت سعيد (حتى يغيروا ما بأنفسهم) دار المؤلف للطباعة دمشق ١٩٧٢.
- دلال ملحس التغيير الاجتماعي والثقافي دار وائل عمان ٢٠٠٤.
- ريمون بودون، مناهج علم الاجتماع ترجمة هالة شيبون منشورات عويدات القاهرة ١٩٧٢.
- زكي نجيب محمود، ارادة التغيير مجلة الفكر المعاصر العدد الخامس تموز ١٩٦٥.
- سيف الإسلام علي، مطر التغيير الاجتماعي دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٦.
- صلاح كاظم جابر، إسلامية المجتمع وتناقف العولمة، أطروحة دكتوراة غير منشورة كلية الاداب جامعة القادسية ٢٠٠٧.
- صلاح كاظم جابر، المضامين الاجتماعية للعمل في الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الاداب جامعة القادسية ٢٠٠١.
- فادية عمر الجولاني، التغيير الاجتماعي المكتبة المصرية القاهرة ٢٠٠٤.
- محسن عبد الحميد، منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣.

◆ الدكتور صلاح جابر كاظم

- محمد احمد بيومي، علم الاجتماع الديني دار المعرفة الجامعة الاسكندرية ط ٢ ١٩٨٨ .
- محمد باقر الحكيم، علوم القرآن مؤسسة شهيد المحراب للتبليغ الإسلامي النجف الاشرف ٢٠٠٥ .
- محمد شحرور، الدولة والمجتمع مطبعة الاهالي للطباعة والنشر لبنان ١٩٩٤ .
- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٧ .
- محمد عبد الهادي، عفيفي التربية والتغير الثقافي مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧٠ .

## الهوامش

- (١) محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع: ٢٨٧.
- (٢) محمد شحرور، الدولة والمجتمع: ١٤١.
- (٣) ريمون بودون، مناهج علم الاجتماع، ترجمة هالة شيبون: ٥-٩.
- (٤) محمد عاطف، (مصدر سابق): ٢٨٨.
- (٥) سورة النجم، الآيتان: ٣-٤.
- (٦) دلال ملحس، التغيير الاجتماعي والثقافي: ٥٩-٦٦.
- (٧) محمد عبد الهادي عفيفي، التربية والتغير الثقافي: ٥٧.
- (٨) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
- (٩) سيف الإسلام علي مطر، التغيير الاجتماعي: ٢٠.
- (١٠) سورة الواقعة، الآية: ١٠.
- (١١) محسن عبد الحميد، منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام: ٥.
- (١٢) المصدر السابق.
- (١٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
- (١٤) محمد باقر الحكيم، علوم القرآن: ٥١-٥٨.
- (١٥) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
- (١٦) سورة المائدة، الآية: ٣.
- (١٧) ينظر: الأمالي للصدوق: ٥٠٠، كمال الدين وتمام النعمة: ٦٠، ٢٣٩، وبحار الأنوار: ٢٣/٥٤، ١٢٦.
- (١٨) محسن عبد الحميد (مصدر سابق).
- (١٩) سيف الإسلام (مصدر سابق).

- (٢٠) محمد باقر الحكيم (مصدر سابق).
- (٢١) صلاح كاظم جابر، إسلامية المجتمع وثقافة العولمة أطروحة دكتوراه، غير منشورة كلية الآداب جامعة القادسية ٢٠٠٧: ١٠١ .
- (٢٢) محمد احمد، بيومي علم الاجتماع الديني: ٤٧-٥٣ .
- (٢٣) جودت سعيد (حتى يغيروا ما بأنفسهم): ١٧ .
- (٢٤) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨ .
- (٢٥) صلاح كاظم جابر، المضامين الاجتماعية للعمل في الإسلام رسالة ماجستير - غير منشورة - كلية الآداب جامعة القادسية، ٢٠٠١: ص ٩٨ .
- (٢٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٥ .
- (٢٧) سورة الرحمن، الآية: ٣٣ .
- (٢٨) سورة الإسراء، الآية: ٩ .
- (٢٩) جودت سعيد (مصدر سابق).
- (٣٠) سورة الجمعة، الآية: ٢ .
- (٣١) فادية عمر الجولاني، التغير الاجتماعي: ١٤-٢٠ .
- (٣٢) عمدة القاري، للعيني ١: ١١٣، ويُنظر: صلاح كاظم جابر، المضامين الاجتماعية للعمل (مصدر سابق).
- (٣٣) زكي نجيب محمود، ارادة التغيير، مجلة الفكر المعاصر العدد الخامس: ١١ .
- (٣٤) المصدر السابق.